

البَيْدَلُ

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ تَيْمُورَ

إذ رأيت سيدة تخرق الشارع ؛ فلما
رأنا تتقاذف الكرة ، وخشيت أن
يصيبها منها أذى ، سارت على الرصيف
بجوار الحائط متجنباً مرماها . كانت
حسنة في مقبل العمر ، ذات شعر
أصفر يلمع لمان الذهب ، تجذب الأنظار

بأناقها وزينتها ، وتمسك بمصا في يمينها تمبث بها
بمنة ويسرة

وما هي إلا أن قذف أحدهم الكرة فانطلقت
صوب السيدة ، وكادت تصيبها لولا لحاقى بها ،
وتحويلي سيرها . ونظرت إلينا السيدة نظرة بين
الغضب والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها يقع على حتى
توقفت عن السير وأخذت تلاحظني ، ثم ابتسمت
لي في رقة ، فلم آبه بها ، واستأنفت لمبي ، ورأيتها
واقفة مكانها بضع دقائق تبغني بنظرها المشغوف
حيثما تنقلت

وفي مثل ذلك الوقت من اليوم التالي ، رأيت
سيدة الأمس تسير على مقربة منا في خطوات متمهلة ،
فما إن وصلت إلى شجرة على جانب الطريق حتى
وقفت في ظلها ترقبنا ونحن نلعب ، وشمرت بها
تخصني — دون رفاق — بنظرتها . وبعد برهة
لمحتها تشير إلي بيدها تستدعيني إليها ، فلم أستجب
وواصلت لمبي . وظلت السيدة تلاحظني في اهتمام ؛
فضايتني هذه الملاحظة بعض المضايقة فارتبكت ،
وهجم على وقتئذ زميل أوقمني وانزع الكرة مني ،
ورأيت السيدة تهرع إلي ، وتساعدني على النهوض
وتنفذ التراب عن ملابسني ، ثم انتحيت بي ناحية
وسألتني :

— هل أصابك ضرر ؟

نشأت يتيم الأب والأم ، أعيش مع عمي في
منزل الأسرة بخلوان . وكنت أبلغ من العمر
العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التي أروها .
وقد أخبروني أن أبي قد مات وأنارضيع ؛ أما أمي
فقد توفيت ولي من العمر أربعة أعوام ؛ فلا أذكر
منها إلا طيفاً خفيفاً ، قليلاً ما زارني وسرعان
ما اختفى . وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست
عيوشة » من أقارب عمي ، ولم تكن بالمرأة المحببة
إلي . هي نحيفة طويلة ، سموة جافة الطبع ،
لها نظرات كرهية وابتسامة خاطفة تبعث الاشتزاز
في النفس

وكان عمي ياملني بشدة ، ولكنه يشمرني
بمض الأحيان بشيء من العطف . وكنت أخافه
وأكره منه غلوه في التحفظ ، ودقته البالغة في
النظام . يبلغ الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات ،
يسير في خطوات عسكرية متناقلة ، يلتزم في حياته
نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه ؛ فلا أذكر أنه تأخر مرة
عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته
أمام مكتبه غارقاً في أبحاثه القضائية

كنت في ذلك الوقت في مستهل الإجازة
الصيفية أقضى يومي ، إما في حديقتنا الصغيرة ،
أنسلق الشجر مع أولاد الجيران ، أو ألعب بالكرة معهم
وبينما كنا نلعب ذات يوم بالكرة أمام الدار ،

فأجبتها : كلا !

وأخذت تدق النظر في ثم قالت :

— يا لله ! أنت مجروح !

— مجروح !

— جرح خفيف ، خفيف جداً كخدش

الدبوس

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربنى ، فأصغيت

لها . وأخرجت مندبلها ، وأخذت تمسح جرحي ،

وتجفف عرق ، فانبعث من المندبل عطر جميل أنعشني

وقالت لي :

— أنت الآن أحسن حالاً ؟

— لم لا أكون أحسن حالاً وأنا لم أصب

بضرر ؟

فابتسمت . وشمرت بأن إجابتي كانت جافة ،

ورفعت بصرى إليها ، فوجدتها تحدق في ، وقد بدا

عليها حنو غريب ، فاحتاج قلبي وقلت :

-- نحن نلعب بالكرة دائماً ، وكثيراً ما وقعنا

— أين تسكن ؟

— هنا

وأشرت إلى منزلنا وجعل أحد رفاقي يناديني :

— واصف ! واصف !

فقالت السيدة :

— أهو اسمك ؟

-- نعم

فانحنت على جيبتي تقبله ، وأمرت يدها على

رأسي تلاطفه ، ثم قالت :

— انطلق إلى أصدقائك يا حبيبي .

وانطلقت ألب . أما السيدة فشيمتني بنظرة

طويلة ، ثم تابعت سيرها بطيئة الخطا .

وفي المساء اجتمعت كمادني بعمي و « الست

عيوشة » على مائدة العشاء . وكان الصمت غنياً علينا ،

كشأننا في كل ليلة : « الست عيوشة » في جلستها

المسكرية لا يفارق وجهها الطبق ؛ تتحرك كأنها

آلة بزنبرك ، وعمى بملامحه الصلبة ، ورأسه المرفوع ،

لا تقادر عينه الجريدة ، ولا يبادلنا حرفاً . . .

وأخيراً نظر إلى الست عيوشة وقال لها .

— أسمعتم بيجارتنا الجديدة ؟

فتقلص وجه الست عيوشة وقالت ، وجسمها لم

يتحرك قيد أنملة :

— أي جارة تعني ؟

فابتسم عمي ابتسامته النكراء ، وقال :

— جارتنا الجديدة التي سكنت منزل المرحوم

« رؤوف بك » في الشارع المجاور لشارعنا ! !

وصمتت الست عيوشة كأنها أخجلها أن يغيب

عنها هذا الخبر . فقال عمي :

— يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا . إن

خبرها شاع وذاع في حلوان .

فقالت الست عيوشة : وما أمرها ؟

فأجاب عمي ، وما تزال على فمه ابتسامته النكراء :

— إنها جاءت من الاسكندرية لتنشر في هذا

البلد الصغير وباءها ؟ — وباءها المهلك المبيد ! !

فحفظت عينا الست عيوشة ، ولكن رأسي

لم يهتز ، وقالت :

— أمرضة هي ؟

— وأشد من مريضة . . . ! إنها من النوع

الهدام الذي يخرب البيوت ، ويقوض سعادة

الأسر . إنها . . . إنها ، ألا تفهمين ؟ !

— . . . فاهمة ! !

— تمهل ريثما تحلى لك الطريق .
— وإذا رأيته تقرب منى وتحاول أن
تكلمنى ؟

فرمقنى الست عيوشة بنظرة فاحصة ؛ فاخرج
قلبي ، ورأيته تبسم بفتة ابتسامتها الشيطانية
وتقول :

— أراهن أنك رأيته وكلتها ...
فانطلقت أنكر فى تحمس ؛ ولكنى أحسست
بأن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورأيت
نفسى بعد حين أقول للست عيوشة :
— أقسم بالله العظيم أنى لن أراها ، ولن أكلمها
بعد اليوم . لا تخبرى عمى بشئ .

وتشبت بجلبابها مسترحا ، فوفقت صامتة
تحدجنى بنظرها البغيض ، ثم سارت متشدة الخطوات
مرفوعة الرأس إلى حجرتها .

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع فتاديا
لاحتمل مقابلتى تلك السيدة . أما عمى فقد ذكرها
مرة أخرى ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب
كله سخط وثورة ، فألمنى ذلك منه ، وعجبت لهذا
الرجل الذى يزج بنفسه فى كل أمر ، ويريد فرض
سلطانه على كل إنسان .

وفى اليوم الرابع خرجت إلى الطريق يدفعنى
أمل غامض إلى لقاءها ؛ وتجاهلت ما أمر به عمى ،
بل شعرت بشئ من الزهو والسرور فى تحديه ،
وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب ظهورها .
ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرت إلى الشارع المجاور
حيث منزل « رءوف بك » الذى تسكنه . فلما
اقتربت من بابه وقع نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت

— سمعت أنها كثيرة التبرج ، ولها شعر أصفر
لا بد أنه مصبوغ ...

— مؤكداً إنه مصبوغ !!
— وقد رأوها تسير بمصا فى الطريق .
— كيف ؟ أعجوز هى ؟
— أجهل عمرها .

— لا بد أنها تخنى سنّها تحت طلاء المساحيق
الثقيلة ... يا لله ... ! ما أبشعها ... !!
وكان قلبى فى أثناء ذلك يبدق دقا عنيقا ، ووددت
لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعت عمى
يقول :

— أرايت سيدة تسير بمصا فى الطريق ؟
فقلصت الست عيوشة فها مستنكرة ، وصمت
عمى برهة ثم تكلم فى حزم وتشدد قائلا :
— أحرم عليكم مقابلة هذه المرأة ، أو اتصالكم
بها !!

فقال الست عيوشة وقد زوت ما بين حاجبيها :
— معاذ الله أن تتصل بهذه الفاجرة !
وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى على نظرة حادة ،
كأنه يقول لى : أفأهم أنت ؟
وعند ما استوتفت أن عمى صار بميداً عنا قلت
للاست عيوشة :

— عجيب أن تتعامل عمى على هذه السيدة
مع أنه لم يرها !!
— وما شأنك وهذا ؟ رأيته أنت ؟

— أنا ؟ أبداً ... ولكن خبرينى ، إذا حدث
مثلا أنى رأيته تسير فى الطريق الذى أسير فيه ،
فماذا أفعل ؟

— ذهبت بنفسى حيث تلمبون وكنت أنتظرك كل يوم .

فمجبت من هذا الاهتمام وشمرت بشيء من الحجل ... ووقع بصرى فى هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمرا أشعرنى بخوف ، وتلفت حولى قرأت « كشكا » بميدا عن الأنظار ، فرفعت بصرى إلى السيدة وقالت لها :

— ألا يمكننا أن نجلس فى هذا الكشك بميدى عن الباب ؟

فابتسمت لى ابتسامة لطيفة وقالت :
ما رأيك فى أن ندخل المنزل ؟ ... لدى شيء أريد أن أريك إياه .

وقامت وهى بمسكة يدي ، وسارت بى إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلستنى فى الردهة الداخلية فإذا بها حسنة التنسيق بديمة الأناث ، مزينة بصور كثيرة ، وفي ركن من أركانها « بيان » كبير . وعادت السيدة بمد قليل تحمل صندوقا جميل الصنع عليه نقوش طريفة ، وفتحته أمامى فوجدته يحوى مجموعة متنوعة من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن ، وقالت لى وهى تقدمه إلى :

— كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك

فمطم الأمر على وقلت متلعنا :

— كلا . هذا كثير !

فوضعت الصندوق على ركبتى وقالت :

— إذا لم تأخذه ساءنى ذلك منك

— ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى وقالت لى :

— إفتح فك ! إفتح !

وفتحت فمى فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت

تقطف الأزهار ؛ ووقفت أمام الباب ساكنا ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى يغمر قلبى بحنوه وعطفه وطيبته . كانت تنتقل بين شجيرات الورد فى فستانها البديع ، وشعرها الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل إلى أنى أشاهد ملكا من سكان السماء .

ولأمر ما ، لفنت وجهها ناحية الباب فرأتنى . واشد ما كانت فرحتها ، فألفت برهرها على الأرض وهرولت إلى وهى تقول :

— واصف ! تعال . ادخل يا حبيبى ، أدخل .
وحوطتنى بذراعها وقبلت رأسى . يا لله من ذلك الشعور الغامض اللطيف الذى أحسست به فى تلك اللحظة !!

وأخذت يدي ودخلت بى الحديقة ، وجمعت ما انتثر من أزهارها ، وقدمته إلى وقالت !
— اختر لك منها ما يحلو .

وأخذت تساعدنى فى اختيار أحسنها ، ثم قدمت إلى الصحبة وهى تقول :

— هى لك يا حبيبى

وكان فى الحديقة دكة جلست عليها وأجلستنى بجانبها ، وجلت تحديقى وجهى طويلا وتمسح رأسى واكتسى وجهها بالحزن ، ورأتها تمسح عينها بحركة خفية ثم قالت :

— لماذا لم تأعب بالكرة مع أصحابك فى ثلاثة الأيام الماضية ؟

فطأطأت رأسى وقالت :

— كنت متوعكا قليلا ... ولكن ، من أخبرك بأنى لم أظهر فى هذه الثلاثة الأيام ؟

تضحك ، فانطلقت أضحك أنا أيضاً ، وبعد أن أكلت
القطعة قلت لها بلا تردد :

— سأحتفظ بالصندوق لئلا كدرك ، ولكنى
سأبقيه عندك ، وسأخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه
فنظرت إلى ملياً ثم قالت :

— إنهم سيسألونك بلاريب عمن أعطاك إياه .
فأنتى أن أفكر فى ذلك

ثم صمتت برهة وهى تمدق فى وقالت :

— أتعجب عمك ؟

— أحبه قليلاً ، ويحبنى قليلاً !

— والسبت عيوشة ؟ !

— لا أحبها ولا تحبنى

ونظرت إليها مدهوشاً وقالت :

— أتعرفينهما ؟

فقال فى لهجة طبيعية :

— وهل من الصعب أن يعرف الجار ما يهمه

عن جاره ؟ ... تعال

وقمت إليها ، فذهبت بى إلى « البيان » وجلست

على مقعده ، وأجلستنى على ركبتيها ، واحتضنتنى

باحدى يديها ، وأخذت يدها الأخرى تنقر نقرأ

خفيفاً على « البيان » فيصدر عنه نغم هادى لطيف ،

وأحسست بفمها بلمس رأسى ويقبل شعرى ، ثم

قالت فى صوت موسيقى هادى* :

— كان هناك طفل يسألنى دائماً أن أعرف له

هذا النشيد ، وأن أغنيه له . طفل جميل كان يحبنى

وأحبه ، فجاءنا ليلة زائر كربه ممقوت بلبس السواد ،

مقنع الوجه بقناع حالك وانتزع منى ، ثم خرج به

إلى الظلام واختفى ...

فسألها وأنا أمدق أمانى :

— وأين ذهب الزائر بهذا الطفل ؟

فأجابت فى صوت مختلج النبرات :

— ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب

إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليها يوماً ولا نعود ...

وتابعت كلامها ويدها تنقر على « البيان » هذا

النغم الهادى* اللطيف

— سأغنى لك هذا النشيد على بروقك ، كما كان

بروق ذلك الطفل العزيز . كنت دائماً أجلسه هذه

الجلسة ، فأحوطه بذراعى ، وأمس شعره بفعى ،

وأملأ صدري بعبير شعره الذهبى ... اسمع . اسمع

وأخذت تغنى الأنشودة فى صوت عذب حنون ،

وتغمت « البيان » تصاحبها فى تناسق جميل فيتكون

من امتزاج الصوت بالمزف وحدة تامة حتى ليصعب

على السامع أن يفرق بينهما ، فيخيل إليه أن « البيان »

هو الذى يغنى ، أو أن السيدة نفسها هى مصدر

ذلك النغم ، تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !

أى شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت ؟

شعور عذب شمانى باطمئنان هادى لطيف ؛ شعور

أثار بين جوانحي ذكرى عجيبة لمشاهد منزوية حرمتها

من قديم

وبينما أنا على هذا الحال ، إذ شعرت بالسيدة

تلتفت خلفها مرتاعة . فالتفتُ — وكانت غيبشة

الظلام قد أخذت تشيع فى الحجرة — فوقمت

عينى على شبح بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرت

إلى ذهنى على الفور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى

يلبس السواد ، ويقنع وجهه بنقاب حالك ، ذلك

الذى اقتحم منزل السيدة فى إحدى الليالى وانتزع

— ألا يمكننا أن نتفاهم ؟ تفضل بالجلوس بضع دقائق ، ولا أطلبك أن تطيل فقال عمي :

— أفضل الوقوف . تكلمى من فضلك وأوجزى

خلعت السيدة حلية مستديرة دقيقة الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاة على صدرها ، تصلها بربتها سلسلة ذهبية ، ثم فتحتها وقدمتها إليه وهي تقول :

— أنظر في هذه الصورة !

فتناول عمي الحلية ، ونظر فيها ثم قال :

— واصف ! صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوخمًا . فقالت وهي ما تزال تبسم ابتسامتها الساكنة :

— كلا يا سيدى ، ليس واصفًا . دقق النظر في الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يغيب عنك ...

— ... إذن ؟ !

— هذه الصورة لم تفارق صدرى منذ فقدته ! لن أنسى ما حيت ليلته الأخيرة مى ، تلك الليلة التى قضتها فى أحضانى بنظر إلى بعينين محومتين ولا يملك أن يتكلم ؛ ورأيت به يخبو أمامى ، يخبو رويداً رويداً حتى انطفأ نوره كل انطفاء . لقد مد الموت إليه يده الظالمة فانتزعه من صدرى بلا رحمة

وشعرت بيد عمى تضطرب وهي ممسكة بيدي ، ورأيت به يسمل سملته المقتلة ، ومضت السيدة فى قولها :

— لقد أصبح فقدته جرحاً عميقاً فى فؤادى تنور على نأثرته بين حين وحين ... كان يغمر قلبى

الطفل الذى تحبه ويحبها من بين أحضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد ... فصرخت :

— كلا ! لا تأخذنى ! ... !

... وأنير المكان ورأيت عمى يسير نحونا بقامته المديدة ، وخطواته المتثاقلة ، عبوس الوجه ، يصوب إلينا نظراته الحادة ، وسمعته يقول :

— ما معنى هذا ... ؟

وانترعنى من السيدة ، وأطبق يده على يدي بشدة وقال لها :

— كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناء الناس ... ؟ أنسيت من أنت ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتسند يدها عليه ، وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها ؛ ثم قالت له فى صوت شبه طبيعى :

— كلا يا سيدى ، لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ... وإذا كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ما هو مخزى وضررى فصدقها . ولكن هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك فى شأن هذا الغلام .

فرن صوت عمى قائلاً :

— عجيب أمرك مع هذا الغلام !

— خفف من حديثك يا سيدى ؛ فليس أمامنا الآن ما يثير الغضب إلى هذا الحد . إن الغلام غلامكم وليس لى فيه أى حق

— حق ؟ هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صوت خافت :

إلى دقاته المتتابعة ، وألمس بغمى شعره الذهبي ، ثم أقبله وأشبه ...

وسكنت وقد أخفت وجهها في التنديل . وبعد حين تمت قائلة :

— والآن يا سيدى ، ليس عندى ما أقوله بعد هذا

ووقف عمى بدور بمينيه أمامه فى حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها . ظل كذلك وقتاً وهو يحاول الكلام فلا يستطيع ، ثم تقدم نحو السيدة وحتى هامت أمامها فى خشوع وخرج وحده فى خطوات مربعة محمرد تمرر

بهجة وملاً عيني نوراً ، وكان صوته وهو بضج باللمب يبعث فى البيت الحياة والإيناس ... آه ! كم كنت سعيدة به ... ! كم كنت نخورة به ... !

ورأيت عمى يتحرك ، ليعتدل فى وقفته ، ولكنه ظل صامتاً يستمع بانتباه . وتابمت السيدة قولها :

— ... وعند ما حضرتُ إلى حلوان ، لقضاء فصل الشتاء ، ساقى المقادير إلى « واصف » فكأنما بُعث ابنى من جديد . رأيتة يعود إلى بمد طول اغتراب ، بشكله ودكه ، فأخذه بين ذراعى ، وأضمه إلى صدرى ، وأضع رأسه على موضع قلبي ؛ ليصنى

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

- ٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والاطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيلتان)
١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى باحدى وتسمين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبي . الاطلاع أبو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أمرى »

يظهر فى نهاية العام